ميشال شيحا في "لبنان اليوم"

لبنان ليس سامياً ولا عربياً وجباله معاقل الاقليات

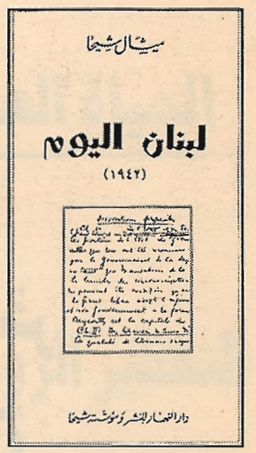

اربعون عاماً مرّت على رحيل المفكر والصحافي ميشال شيحا، الذي قال عنه المؤرخ كمال الصليبي: "اشوري الاصل ينتمي الى الطائفة الرومانية الكاثوليكية اي اللاتينية. وكان ميشال شيحا، الذي اوكل اليه وضع مسودة الدستور اللبناني، اديباً واسع الاطلاع، ولبنانياً شديد التمسك بلبنانيته، واقعياً في تفكيره، نافذ البصيرة في شؤون البلاد، وكان من رأيه ان الحفاظ على الكيان اللبناني الجديد يستحيل ما لم تفهم العلاقات التقليدية بين الطوائف اللبنانية المختلفة، وتعطى حقها من الاعتبار، اذ لبنان بلد من واجب التقاليد ان تصونه من العنف". بهذه المناسبة وفي الذكرى الاربعين لرحيل مهندس دستور عام ١٩٢٦، صدر كتاب "لبنان اليوم"*، وفي كلمة الناشر ان رئيس مجلس النواب في حينه، السيد حسين الحسيني، كان قد اخذ المبادرة الى الترجمة والنشر، فعهد بالامر الى الدكتور احمد بيضون ثم حالت الظروف دون اكتمال المشروع.

في مقدمته يقول غسان تويني: "ولكن، من سوى التاريخ يقول الحقيقة؟ من هنا ان حقيقة لبنان في تاريخه. وفي تاريخه الواحد المستمر سمات شخصيته، وجوهر شعبه، وكنه رسالته، وقواعد سياسته. وفي تاريخ لبنان ما يشبه البرهان اننا كنا، كما نحن اليوم، اشبه ما نكون بذلك الطير الريشه نار "الفينيكس" الذي لا يكاد يموت لحظة حتى يبعث من رماده حياً. ابداً هو قديم هرم، وفتي طالع".

ثم يستخلص تويني: "ولاننا على طريق، بل على مفترق طرق اوروبا وآسيا وافريقيا، لا يمكن دولة كبرى، ايا كانت، ألاّ تهتم بنا. فضلاً عن ان شعوب الارض كلها تلاقت على ارضنا، وتلاحمت وامتزجت فاذا بلبنان يستحيل بوتقة تصهر فيها اجناس بشرية مختلفة، واذ باللبنانيين اليوم زبدة هذا الماضي الحافل المضطرب. ليسوا فينيقيين هم، ولا مصريين ولا ايجيين، ولا اشوريين، ولا فرساً ولا اغريقاً ولا رومانيين ولا بيزنطيين ولا عرباً، ولا اوروبيين ولا اتراكاً. انهم ذلك كله، في الوحدة الناشئة من اجتماع ذلك كله عبر السنين، على الارض اللبنانية".

من هو؟

ولد ميشال شيحا لعائلة تاجر عام ١٨٩١، لكن والده توفي عام ١٩٠٣ تاركاً للصغير اسهماً في "بنك فرعون وشيحا". كان تلميذاً متفوقاً، درس الاعمال المصرفية في انكلترا حتى تمكن من تسلم ادارة "بنك فرعون وشيحا" ثم اصبح مستشاراً في الامور المالية ونائباً عن بيروت، وهرب من الاتراك عام ١٩١٤ الى مصر حيث تعرف الى بشارة الخوري الذي تزوج شقيقة شيحا بعدما وضعت الحرب اوزارها، وليصبح اول رئيس للجمهورية في العهد الاستقلالي الاول.

ولادة الدستور

عندما خلف المفوض دي جوفنيل سلفه الجنرال سراي، المشهور بعلمانيته، ادلى بتصاريح عدة تتضمن استعداده للاستماع الى مطلب الرأي العام اللبناني الذي اصرّ على الحصول على قدر اوسع من الاستقلال، وعلى ان يتسلم مسؤول لبناني مهام الحاكم الفرنسي. هدأت القلاقل، وخصوصاً بعدما وعد دي جوفنيل اللبنانيين بدعوة المجلس التمثيلي لوضع دستور للبلاد. وافسح دي جوفنيل امام المجلس التمثيلي لانتخاب لجنة خاصة تعد الدستور، وتنسق بنوده، ولهذه الغاية تمّ انتخاب بترو طراد، وميشال شيحا مقررين لتلك اللجنة فاتصلا بشخصيات البلاد على جميع المستويات للتشاور معها. وكان على اللجنة نيل موافقة المفوضية الفرنسية على الصيغة النهائية لهذا الدستور الذي جاء محافظاً على حقوق الانتداب الفرنسي، وقد قام بشارة الخوري بتبرير ذلك: "انه لم يكن في امكان لبنان ان ينال في هذه الظروف اكثر مما ناله".

وتشكّلت لجنة من ابرز اعضائها موسى نمور لمناقشة مسودّة الدستور وفي احتفال رسمي في ٢٣ ايار ١٩٢٦ وقف دي جوفنيل في مجلس النواب يعلن الانتهاء من وضع مواد الدستور اللبناني. وبعد ثلاثة ايام، اي في ٢٦ ايار عام ١٩٢٦، انتخب الارثوذكسي شارل دباس اول رئيس للجمهورية اللبنانية. لكن بعض الحوادث المخلة بالامن جعلت الحكومة الفرنسية تسحب المفوض دي جوفنيل وتعين مكانه بونسو ليمضي في سدّة المفوضية سبعة اعوام كاملة. وفي ٢٧ نيسان ١٩٢٩ عُدّلت المادة المتعلقة بمدة رئاسة الجمهورية فاصبحت ست سنوات بعدما كانت ثلاثاً، ومن يومها درج على العمل بهذه المادة.

خط تطوري

يقول ميشال شيحا ان لبنان اليوم مطابق لاصوله اي للبنان الفينيقي، ولهذا علينا مسايرة الساحل المتوسطي من الجنوب الى الشمال، ذهاباً من جبل الكرمل وعكا الى "ارادوس" القديمة، وهي جزيرة ارواد، فالى طرطوس. اما الجبل اللبناني الذي يمتد موازياً للبحر وسلسلة المدن الساحلية، هو اليوم شأنه بالامس، اكثر احراجاً في شماله منه في جنوبه، تبعاً لصعوبة مسالكه، انما هو عمودنا الفقري حقيقة ومجازاً.

يرى ميشال شيحا ان الشعب اللبناني يسير في خط تطوري مطرد، واننا اخذنا الكثير من الشعوب التي احتلت هذه المنطقة. اي، لم نعد ساميين انقياء او كما يقول المؤرخ كونتينو: "يؤكد البحث عما قبل التاريخ وجود سكان اصليين كانوا على الساحل بكثافة عظيمة ولا يظهر انهم كانوا ساميين".

ويشير ميشال شيحا الى ان الفتوحات المتأخرة اضطرت السكان الى التمرد مرة بعد مرة، حتى ضيقوا عليهم وشتتوهم. فما هم المردة في لبنان، ايام الامويين، وقد جاؤوا من تخوم طوروس وانتهى بهم الامر الى الامتزاج بالموارنة الذين كانوا قد وجدوا، قبلهم بمدة طويلة، ملجأ في الجبل اللبناني، وانشأوا فيه وطناً. وهنا يستنتج: "فلنسجل اذن ان الجبال عندنا، شأنها حولنا، هي معاقل الاقليات، وهذه ظاهرة لا يعصى تفسيرها".

ثم يقول: "جاء العثمانيون، وقابلهم بعد قليل نشوء اسرة حاكمة لبنانية، خليقة حقاً بهذا الاسم، هي اسرة المعنيين المهمشة، وقد واصل سعيها الشهابيون، وكانت مدركة لما لهذه البلاد من اصالة عميقة تميّزها صفاتها الفريدة، وكانت لها معرفة تكاد تكون غريزية بما قدر لهذه البلاد ان تكون، وكانت التقاليد اللبنانية في دمها".

ومن هنا تساءل ميشال شيحا: هل يسوغ القول، بعد هذا، ان لبنان اليوم سامي؟ وهل يسوغ القول انه عربي؟ وجواباً قال: "ليحكم في هذا من شاء! نحن نقول بشيء اقرب الى الحسم: ان شعب لبنان لبناني بكل بساطة".

كان ميشال شيحا ضدّ كل المطامع التي اجترأت على لبنان، ومنها المطامع الاسرائيلية. ولما كان لبنان بلد الاقليات الطائفية المتشاركة فلا امكان لصموده من دون مجلس يشكل مكان لقاء وتوحيد للطوائف، ويباشر الاشراف المشترك على حياة الامة السياسية. فحين نلغي المجلس نكون قد نقلنا الجدل حتماً الى المحراب او الى ظله. وحين نكون بلا مجلس لا نجد بين ايدينا ما نواجه من الضغط الخارجي اذا تجاوزت قوته المعتاد.

مجلس النواب والتعديات الخارجية

رأى ميشال شيحا ان مجلس النواب الممثل للاقليات كلها هو الصخرة الصامدة في وجه الاطماع بما للقوانين التي يسنّها من مفعول. ذلك ان هذه القوانين هي عنصر امتياز تساعد اللبناني في الصمود.

ثم يقول: "لا حياة للبنانيين من دون مجلس نواب يشجع على التشبث بالتراث، ورد الاعتبار الى الارض، وان نحب الفلاح ليبقى في جباله حارساً لبساتينه، وينابيعه، وحقوله. هذا هو الثمن الذي علينا اداؤه لكي نبقى حيث نحن من غير ان نخسر نفوسنا". وقد ركّز ميشال شيحا كثيراً على دور الدستور ودور مجلس النواب لكي لا نتحول فندقاً لعابر او وكالة لتاجر، ولا مكتباً يصدر الجوازات للراحل الينا، والراحل عنا.

خلاصة

لبنان اليوم، وهو لبنان المستقبل الذي لا يمسّ، هو ايضاً وطن لجميع ابنائه على حد سواء، يجب ان يعلن حقه في الحياة، وعلى جميع اللبنانيين واجب خدمة هذا الوطن حتى يتسلمه لبنانيو الغد كبيراً، وموطدا. لقد استشفّ ميشال شيحا المستقبل فكان رائياً.

وضاح يوسف الحلو